

الفصل الأول

في تحقيق معنى الوحي والنبوة والرسالة وحاجة البشر إليها وأصولها
وعدم إغناء العقل والعلم الكسبي عنها⁽¹⁾

تعريف الوحي لغة وشرعاً:

قال في الأساس: أوحى إليه وأومى إليه بمعنى، ووحيت إليه وأوحيت إذا
كلمته بما تخفيه عن غيره. وأوحى الله إلى أنبيائه ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّعْلِ﴾ [النحل: 68].
وقال الراغب: أصل الوحي الإشارة السريعة، ولنضمن السرعة قيل «أمر
وحيٌّ» وذلك يكون بالكلام على سبيل الرمز والتعريض، وقد يكون بصوت مجرد
عن التركيب، وبإشارة ببعض الجوارح وبالكتابة. وقد حمل على ذلك قوله تعالى عن
زكريا ﴿فَنَجَّ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمَحْرَابِ فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ [مريم: 11].
الخ، أي أشار إليهم ولم يتكلم. والوحي يتشديد الياء: السريع، ومن وحي الإيحاء
بالجوارح قول الشاعر:

نظرت إليها نظرة فتحيرت دقائق فكري في بديع صفاتها
فأوحى إليها الطرف أني أحبها فأثر ذاك الوحي في وجنتها

فالقول الجامع في معنى الوحي اللغوي: أنه الإعلام الخفي السريع الخاص بمن
يوجه إليه بحيث يخفي على غيره. ومنه الإلهام الغريزي كالوحي إلى النحل، وإلهام
الخواطر بما يُلقيه الله في روع الإنسان السليم الفطرة الطاهر الروح، كالوحي إلى أم
موسى، ومنه ضده وهو وسوسة الشيطان، قال تعالى ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ
أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَدِّدُوا لَهُمْ﴾ [الأنعام: 121]، وقال ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيْطَانِ
الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام: 112].

(1) هذا الفصل من زيادات الطبعة الثانية في أولها.

ووحى الله تعالى إلى أنبيائه قد روعي فيه المعنيان الأصليان لهذه المادة وهما الخفاء والسرعة. فهذا معنى المصدر، ويطلق على متعلقه، وهو ما وقع به الوحي، أي اسم المفعول، وهو ما أنزله تعالى على أنبيائه وعرفهم به من أنباء الغيب والشرائع والحكم، ومنهم من أعطاه كتاباً، أي تشريعاً يكتب، ومنهم من لم يعطه.

والله تعالى يوحى إلى ملائكته ما يأمرهم بفعله كقوله ﴿إِذْ يُوحَىٰ رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ [الأنفال: 12]. ويوحى إلى ملك الوحي ما يوحىه الملك إلى الرسول كقوله ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ﴾ [النجم: ١٠]، أي أوحى إلى عبده جبريل عليه السلام ما أوحى جبريل إلى محمد ﷺ.

وقال شيخنا الأستاذ الإمام في رسالة التوحيد بعد تعريف الوحي لغة «وقد عرفوه شرعاً أنه إعلام الله تعالى لنبي من أنبيائه بحكم شرعي ونحوه. أما نحن فنعرّفه على شرطنا بأنه عرفان يجده الشخص من نفسه، مع اليقين بأنه من قبل الله بواسطة أو بغير واسطة، والأول بصوت يتمثل لسمعه أو بغير صوت. ويفرق بينه وبين الإلهام بأن الإلهام وجدان تستيقنه النفس وتنساق إلى ما يطلب من غير شعور منها من أين أتى، وهو أشبه بوجدان الجوع والعطش والحزن والسرور».

هذا التعريف يشمل أنواع الوحي الثلاثة الواردة في قول الله عز وجل ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُلِمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلَىٰ حَكِيمٍ مُّبِينٍ﴾ [الشورى: ٥١].

فالوحي هنا إلقاء المعنى في القلب، وقد يعبر عنه بالنفث في الروح، وهو بالضم: القلب والخلد والخطر. والكلام من وراء حجاب هو أن يسمع كلام الله من حيث لا يراه، كما سمع موسى عليه السلام النداء من وراء الشجرة. وأما الثالث: فهو ما يلقيه ملك الوحي المرسل من الله إلى رسول الله، فيراه متمثلاً بصورة رجل، أو غير متمثل، ويسمعه منه، أو يعيه بقلبه.

وتعبيره يشمل (قبل التفرقة بينه وبين الإلهام) ما يسميه بعضهم بالوحي النفسي وهو الإلهام الفاضل من استعداد النفس العالية، وقد أثبتته بعض علماء الإفرنج لبنينا ﷺ كغيره. فقالوا: إن محمداً يستحيل أن يكون كاذباً فيما دعا إليه من الدين القويم والشرع العادل، والأدب السامي. وصوره من لا يؤمنون بعالم الغيب منهم أو بإتصال عالم الشهادة به: بأن معلوماته وأفكاره وآماله ولدت له إلهاماً فاض من عقله الباطن أو نفسه الخفية الروحانية العالية على مخيلته السامية، وانعكس اعتقاده على بصره فرأى الملك ماثلاً له وعلى سمعه فوعى ما حدثه الملك به.

فصار الخلاف بيننا وبين هؤلاء في كون الوحي الشرعي من خارج نفس النبي نازلاً عليها من السماء كما نعتقد، لا من داخلها فائضاً منها كما يظنون، وفي وجود ملك روحاني مستقل نزل من عند الله عليه ﷺ كما قال عز وجل ﴿وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الرُّوحَ الْأَمِينُ ﴿١٣٢﴾ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿١٣٣﴾ بِلسانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ﴿١٣٤﴾﴾ [الشعراء] وفي تخيل الملك بزعمهم.

وسنشرح هذا الزعم ونبسط شبهاته ونبطلها، ونثبت أن هذا القرآن وحي من الله تعالى نزل من فوق السموات العلى، لا يمكن أن يكون فائضاً في هذه الأرض من نفس محمد ﷺ وهو موضوع كتابنا هذا.

واعلم أيها القاريء أن تقسيم المتكلمين كلام الله تعالى إلى نفسي قديم قائم بذاته سبحانه، ليس بحرف ولا صوت ولا ترتيب ولا لغة، وكلام لفظي هو المنزل على الأنبياء عليهم السلام، ومنه الكتب الأربعة، وخلافهم في كونه مخلوقاً أو غير مخلوق، هو اصطلاح كله فلسفة وآراء نظرية مبتدعة، لم يرد به كتاب ولا سنة، وهو تعرض للبحث التحليلي لذات الله تعالى وصفاته، ومثار للوسواس الشيطاني فيه، فاجتنبه واستعد بالله منه. وحسبك أن تؤمن بأن الكلام صفة كمال تتعلق بكل ما يتعلق به العلم، إلا أن تعلق العلم عبارة عن انكشاف المعلومات للعالم، وتعلق الكلام عبارة عن كشف العالم ما شاء من علمه لمن شاء، وأن الله تعالى متصف بكمال العلم والتعليم، وكمال الكلام والتكليم، وأن هذا وغيره مما وصف به نفسه

في كتابه لا ينافي كمال تنزيهه تعالى عما يليق به من نقائص عباده، ولا يقتضي مماثلته لهم فيها وهبهم من كمال، فإن الاشتراك في الأسماء لا يقتضي الاشتراك في المسميات، وأسماء الأجناس المقولة بالتشكيك في الممكنات تختلف من وجوه كثيرة منها النقص والكمال، فكيف بها إذا كانت مشتركة بين الخالق والمخلوقات، فذاته تعالى أكمل من ذواتهم، ووجوده أعلى من وجودهم، وصفاته أسمى من صفاتهم وهو أعلم ورسوله أعلم منهم بصفاته وأفعاله، فعليك أن تؤمن بما صح عنهما من إثبات ونفي، من غير زيادة ولا نقص، بلا تعطيل ولا تمثيل ولا تأويل، وليس عليك ولا لك أن تحكم رأيك وعقلك في كنه ذاته ولا صفاته، ولا في كيفية مناداته وتكليمه لرسوله، ولا في كنه ما هو قائم به وما يصدر عنه، على هذا كان أصحاب الرسول وعلماء التابعين، وأئمة الحديث والفقه، قبل ظهور بدعة المتكلمين.

النبي

معناه لغة وشرعاً، والفرق بين الرسول وغيره

النبي في اللغة العربية وصف من النبأ، وهو الخبر المفيد لما له شأن مهم، ويصح فيه معنيي الفاعل والمفعول لأنه مُنبئ عن الله ومُنْبَأً منه، والنبِّيُّ بالتشديد أكثر استعمالاً، أُبدلت الهمزة فيه ياء، أو هو من النبوة وهي الرفعة والشرف، ويطلق عند أهل الكتاب على الملهم الذي يُخبر بشيء من أمور الغيب المستقبلية، وقيل إن معنى أصل مادته في العبرانية القديمة المتكلم بصوت جهوري مطلقاً أو في الأمور التشريعية، وهو عندنا من أوحى الله إليه وحياً، فإن أمره بتبليغه كان رسولاً، فكل رسول نبي، وما كل نبي رسول، فقوله تعالى ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾ [الأحزاب: 40] يدل على انقطاع النبوة والرسالة معاً بعد محمد ﷺ، فكل من ادعى أو يدعي الوحي الشرعي من الله تعالى بعده فهو كذاب مضل. وقد ادعى النبوة كثيرون فظهر كذبهم.

ولم يأت أحد ادعى النبوة بعد محمد ﷺ بشيء من الإصلاح الديني الذي يحتاج إليه البشر، بل رأينا كتبهم وأقوالهم طافحة بمدح أنفسهم والغلو في إطرائها

ودعاويها الباطلة، التي يراد بها إخضاع العوام لهم واستعبادهم إياهم، كالذي نعهده في الدجالين من مدعي الولاية ومعرفة الغيب والتصرف الروحاني في نفع الناس وضرهم، ويدحض هذا وأمثاله ما بينه الله في كتابه الحق من وظائف الرسل كافة، وخاتم النبيين خاصة، كما تراه في موضعه من هذا الكتاب، وكذا ما عُلِمَ بالتواتر من شمائله وأخلاقه ﷺ، من التواضع وكراهة الدعوى والإطراء والنهي عنه.

ويرى قاريء هذا الكتاب فيه أن ما جاء به ﷺ من كتاب الله وما بينه به من سننه كافٍ شامل لكل ما يحتاج إليه البشر من هداية الدين لا يحتاجون إلى غيره.

حاجة البشر إلى الرسالة، وأصول أديان الرسل الأساسية

وجه حاجة البشر إلى هداية الأنبياء عليهم السلام في الجملة: أن موضوع رسالتهم المقصودة بالذات أو بالقصد الأول ثلاثة أمور، لا تستقل معارفهم المكتسبة بحواسهم وعقولهم بها، ولا يذعنون فيها إلا لأمر ربهم وخالقهم.

(أحدها) الإيمان بالغيب، ورأسه توحيد الله وصفاته وآياته الدالة على كماله وتنزهه عن النقص، وما يجب من عبادته وشكره وذكره الذي هو أعلى ما تتركى به النفس وتتطهر من أدران مساوئها، وتصل إلى الكمال المستعدة له بفطرتها. ويليه الإيمان بملائكته وما يناط بهم من الوحي، والنظام في الخلق والأمر، ويجب الوقوف في ذلك عند ما ورد به النص.

ومما أخبر به الأنبياء من أمر عالم الغيب (الجن والشياطين)، وأن ما يجده الناس في أنفسهم من خواطر السوء وتقوية دواعي الشر والباطل فهو من وسواس الشياطين. وحكمة إعلامهم بذلك إرشادهم إلى محاسبة أنفسهم على خواطرها، والتمييز بين حقها وباطلها، وخيرها وشرها، فهو أكبر مُعين لهم على تربيتها وتزكيتها، وقد أوضحناه بالدلائل في تفسيرنا، وضررنا له المثل بعوالم الجِنَّة المادية التي تسمى بالميكروبات، وكون تأثيرها في الأجسام كتأثير الشياطين في الأرواح، وقد مر على البشر الألوف الكثيرة من السنين وهم يجهلون. على ما لها من التأثير

العظيم في صحتهم وأمراضهم، وطعامهم وشرابهم، حتى كشفوها في هذا العصر، ولو حاسب الناس أنفسهم على خواطرهم السوءى اتقاء لوسوسة الشياطين كما يتقون ميكروبات الأمراض لحفظ أبدانهم، لكان تأثير هذه التقوى في حفظ الأنفس من الشر والفساد، أعظم من تأثير تلك الوقاية في حفظ الأجساد من الأمراض.

وقد كشف بعض الماديين في القرن الثامن عشر أن للبشر أرواحاً مستقلة كما أخبرهم الأنبياء، ووجدوا وسيلة لإدراك بعض الجنة غير المادية، وهو ما يعتقدون أنه من أرواح الموتى. والراجح عندنا أن أكثرها من أرواح شياطينهم ولا يتسع هذا الفصل لبيان الحق في هذه المسألة التي لا تزال موضع الخلاف بين الناس، وإنما المراد هنا تعريف موضوع الرسالة بالإجمال.

المشهور: أن أرقى البشر عقلاً ورأياً في شئون العالم، رجال السياسة الدولية في الغرب، وإنك لتجد غاية سياستهم أن يُسَخَّرُوا ثروة شعوبهم ونتائج علومها وفنونها لعداوة بعضهم لبعض وإعدادها للتقتيل والتدمير، أليست هذه السياسة الشيطانية مصداقاً لقول الله تعالى فيهم ﴿تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَرَزَنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمْ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (١٦) وَمَا أُنزِلْنَا عَلَيْكَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٦﴾ ؟ [النحل].

(ثانيها) ما يجب اعتقاده من البعث بعد الموت والحساب والجزاء على الإيمان والأعمال، وهو أكبر البواعث -بعد الإيمان بالله ومعرفته- على اتباع ما شرعه من اتباع الحق، وإقامة العدل، وأعمال البر والخير، والصدود عن أضدادها.

(ثالثها) وضع حدود وأصول للأعمال التشريعية المشار إليها، لا مجال للآراء والأهواء فيها، لتكون جامعة للكلمة، مانعة من التفرقة، مُتَّبَعَةٌ في السر والعلانية.

وجملة القول: أن تهذيب البشر بالدين مبني على الإيمان بالغيب والوقوف فيه عند خبر الأنبياء عليهم السلام، ولا يمكن تهذيبهم بالعلوم المادية الكسبية وحدها، وهو ما نكرر بيانه في هذا الكتاب.

عصمة الأنبياء

إذا كان إرسال الأنبياء إلى البشر لأجل هدايتهم إلى تركية أنفسهم بما تصلح به أحوالهم في دنياهم، ويستعدون به لحياة أعلى من هذه الحياة الدنيا في نشأة أخرى، فلا يتم هذا الغرض ولا تتحقق هذه الحكمة إلا إذا كان هؤلاء الأنبياء أهلاً لأن يُقتدى بهم في أعمالهم وسيرتهم، والتزام الشرائع والآداب التي يُبلِّغونها عن ربهم، ومن ثمَّ قال علماؤنا بوجوب عصمة الأنبياء من المعاصي والردائل، وببالغ بعضهم فيها حتى قالوا بعصمتهم من الذنوب الصغائر كالكبائر قبل النبوة وبعدها، وخص بعضهم العصمة من الصغائر بما كان باعته الخسة والدناءة.

وأهل الكتاب لا يقولون بهذه العصمة، وكتبهم المقدسة ترمي بعض كبار الأنبياء بكبائر الفواحش المنافية لحسن الأسوة، بل المجرئة على الشرور والمفاسد.

والنصارى منهم يجعلون معاصي الأنبياء دليلاً على عقيدتهم وهي أن المسيح هو المعصوم وحده، لأنه رب وإله، ولأنه هو المُخَلَّص للناس من العقاب على الخطيئة اللازمة اللازمة لكل ذرية آدم بالوراثة له، وأنه لا شفيع ولا مُحَلِّص لهم غيره، لأن المخطيء لا يخلص المخطئين وهو منهم، وهذه العقيدة وثنية مخالفة لدين الأنبياء وكتبهم وللعقل، ومطابقة للأديان الوثنية الهندية وغيرها.

بيد أن كتب العهدين القديم والجديد المقدسة عندهم المحرفة في اعتقادنا لا تشهد لهم برمي جميع أنبيائها بالذنوب فضلاً عن المعاصي التي هي أشد من الذنوب، فإن يوحنا المعمدان (يحيى بن زكريا عليهما السلام) لم يوصم بخطيئة قط، بل شهدت له أناجيلهم بما يدل على أنه كان أعظم من المسيح في عصمته، ففي إنجيل لوقا «1 : 65 إنه يكون عظيماً أمام الرب، وخيراً ومسكراً لا يشرب، ومن بطن أمه يمتلك بروح القدس»، وفيه «66 كانت يد الرب معه» وقال المسيح فيه «متى 11 : 11 الحق أقول لكم: إنه لم يقم بين المولودين من النساء أعظم من يوحنا المعمدان» ثم قال فيه «18 جاء يوحنا لا يأكل ولا يشرب فيقولون فيه شيطان 19 وجاء ابن الإنسان يأكل ويشرب فيقولون: هو ذا إنسان أكول وشريب خمر محب

العشارين والخطاة» بل شهدت الأناجيل أن المسيح عليه السلام أهان أمه وإخوته ولم يسمح لهم بلقائه، وقد استأذنوا عليه ليكلّموه، وعلل ذلك بأنهم مخالفون لمشيئة أبيه كما تراه في آخر الفصل الثاني عشر من إنجيل متى وآخر الثالث من مرقس بالمعنى. وعبرة لوقا (8 : 20) فأخبروه قائلين: أمك وإخوتك واقفون خارجاً يريدون أن يروك 21 فأجاب وقال لهم: أمي وإخوتي هم الذين يسمعون كلمة الله ويعملون بها) نعم إن إخوته لم يكونوا يؤمنون به كما هو مُصرّح به في موضع آخر: ولكن هل كانت أمه كذلك؟ وهل يجازيها هذا الجزاء؟ والله تعالى يوصي بالإحسان بالوالدين حتى المشركين، ويُفضّل أم السيد المسيح على نساء العالمين. وإهانة الأم ذنب في جميع الشرائع والآداب، كما أن المبالغة في شرب الخمر ذنب حتى في الشرائع التي لم تحرمها مطلقاً. وجاء في هذه الأناجيل أن الشيطان استولى عليه أربعين يوماً يجربه ويدعوه إلى عبادته، كما تراه في أول الفصل الرابع من إنجيل متى، وكذا في غيره من الأناجيل، ونحن نبرئه من كل ذلك.

وشهدت الأناجيل أيضاً بأن يوحنا كان يعمد الناس للتوبة ومغفرة الخطايا وأنه عمّد المسيح نفسه، وبأن أباه زكريا وأمّه اليصابات «وكانا كلاهما بارين أمام الله سالكين في جميع وصايا الرب وأحكامه بلا لوم» (لوقا 1 : 6) وهذه شهادة بالعصمة التامة.

وهناك أنبياء آخرون شهدت لهم نبوات العهد القديم بالبر ولم ينسب إلى أحد منهم أدنى خطيئة، وأدم عندما ارتكب الخطيئة لم يكن نبياً مرسلًا إلى أحد ولا كان معه قوم يُسيئون الاقتداء به، وكان قد نسي النهي عن الأكل من الشجرة، وإنما كانت مثلاً لاستعداد جنس البشر للمعصية كالطاعة، نسياناً أو عمداً، ولكون المعصية تعالج بالتوبة فيغفرها الله تعالى، وقد كان ابنه قابيل وهايل مثلاً لكل من الاستعدادين، وشهد الكتاب عندهم لهايل بأنه كان باراً لم يرتكب خطيئة، وهو لم يكن نبياً.

جاء القرآن وهو المهيمن على جميع الكتب الإلهية بما لخصناه من الحق في مسألة آدم، وشهد لمن قص علينا خبرهم من أنبياء الله ورسله أنهم كانوا من الصالحين الذين يُقْتَدَى بهم في البر والتقوى، كقوله في سورتهم ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَبِيدِينَ﴾ (٧٣) [الأنبياء]، وقال فيهم بعد ذكر أشهرهم ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَّتْهُمْ أَقْتَدَ﴾ [الأنعام: 90].

وأما قوله لخاتمهم ومكمل هدايتهم ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾ (١) لِيُغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ [الفتح] إلخ وقوله ﴿وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ [محمد: 19]، فالذنب فيه جاء على أصل معناه اللغوي المشتق من ذنب الدابة، وهو كل عمل له عاقبة ضارة أو منافية للمصلحة، أو لما هو أولى وأنفع، ويدخل فيه الاجتهاد في الرأي المباح شرعاً كإذن النبي ﷺ لمن استأذنه من المنافقين في التخلف عن غزوة تبوك وعاتبه الله عليه بقوله ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنَتْ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَذِبِينَ﴾ (٤٢) [التوبة] (1)، وإنما العصمة للأنبياء من معصية الله بمخالفة وحيه إليهم، إذ لو عصوه لكان أتباعهم مأمورين من الله بالمعصية، لأنه أمرهم باتباعهم، وقال في نبينا ﷺ ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ (٦١) [الأحزاب].

العقل والعلم البشري لا يغنيان عن هداية الرسل:

(فإن قيل) إن الإيمان بالغيب ووجود الرب غريزي في الفطرة البشرية كما حققتم، أو إلهام من إلهاماتها يلقي في روع أفرادها عند نمو إدراكهم، وأن بعض الحكماء المفكرين قد ارتقوا في معارفهم العقلية إلى حيث أقاموا البراهين على وجود واجب الوجود وعلمه وحكمته، ووجوب تعظيمه وشكره وعبادته، وقد قرّر بعضهم بقاء النفس بعد الموت وخلودها في نعيم مقيم أو عذاب أليم، ووضعوا

(1) تراجع المسألة في تفسير هذه الآية من جزء التفسير العاشر ص 464.

للناس أصول الفضائل والتشريع والآداب التي تصلح بها الإنسانية وروابط الاجتماع.

(قلت) نعم لكل ذلك أصل يثبت التاريخ الماضي، ويشهده العصر الحاضر، ولكن بين هداية الأنبياء وحكمة الحكماء وعلومهم فروقاً في مصدر كل منهما، وفي الثقة بصحته، وفي الإذعان لحقيقته، وفي تأثيره في أنفس جميع طبقات المخاطبين.

فحكمة الحكماء وعلومهم آراء بشرية ناقصة وظنون، لا تبلغ من عالم الغيب إلا أنه موجود مجهول، وهي عرضة للتخطئة والخلاف، ولا يفهمها إلا فئة مخصوصة من الناس، وما كل من يفهمها يقبلها، ولا كل من يقبلها ويعتقد صحتها يرجحها على هواه وشهوته، إذ لا سلطان لها على وجدان العالم بها، فلا يكون لها تأثير الإيمان وإسلام الإذعان والتعبد، لأن النوع البشري يأبى طبعه وغريزته أن يدين ويخضع خضوع التعبد لمن هو مثله في بشريته، وإن فاقه في علمه وحكمته، وإنما يدين لمن يعتقد أن له سلطاناً غيبياً عليه بما يملكه من القدرة على النفع والضرر بذاته، دون الأسباب الطبيعية المبذولة لجميع الناس بحسب سنن الكون ونظامه.

وأضرب لهذا مثلاً: أنه كان للفيلسوف الرئيس ابن سينا خادم متعلم معجب بعلومه وفلسفته، وكان يعجب منه كيف يدين بملة محمد ﷺ ويتبعه وهو في رأيه أعلم منه وأرقى، وكان يكشفه بذلك فيعرض عنه أو يوبخه، فاتفق أن كانا في مدينة أصفهان في ليلة شديدة البرد كثيرة الثلج، فأيقظ الرئيس خادمه في وقت السحر وطلب منه ماء ليتوضأ به، فاعتذر بشدة البرد وبقاء الليل، ثم أيقظه الرئيس في وقت أذان الصبح وطلب منه الماء فاعتذر بشدة البرد، حتى إذا قال المؤذن: أشهد أن محمداً رسول الله - قال الرئيس لخادمه اسمع، ماذا يقول المؤذن؟ قال إنه يقول: أشهد أن محمداً رسول الله. قال الرئيس: الآن قد آن لي أن أبين لك ضلالك القديم، إنك خادمي لا عمل لك غير خدمتي وإنك أشد الناس إعجاباً بي وإجلالاً وتعظيماً لي، حتى إنك تفضلني على رسول الله ﷺ وتنكر عليّ أن أو من به وأتبعه، وإنك على هذا كله تخالف أمري في أهون خدمة أطلبها منك في داخل الدار معتذراً بشدة

البرد، وإن هذا المؤذن الفارسي يخرج من بيته قبل الفجر ويصعد هذه المنارة، وهي أشد مكان في البلد برداً، حتى إذا لاح له الفجر أشاد في آذانه بذكر محمد العربي بعد مرور أربعة قرون ونيف على بعثته، إيماناً وإذعاناً، وتعبداً واحتساباً. فتأمل هذا وتدبره في نفسك يظهر لك الفرق بين سلطان النبوة على الناس وسلطان العلم والفلسفة.

فمن أعظم مزايا هداية الوحي الدينية على العلمية الكسبية أن جميع طبقات المؤمنين بها يذعنون لها بالوازع النفسي التعبدى، فبذلك تكون عامة ثابتة لا مجال للخلاف والتفرق فيها ما دام الفهم لها صحيحاً، والإيمان بها راسخاً، ولذلك نرى الشعوب التي ساء فهمها للدين، وتزلزل إيمانها به أو زال، لا ينفعها من دونه علوم العلماء، ولا حكمة الحكماء، وقد ارتقت العلوم والحكمة في هذا العصر، وعم انتشارهما بما لم يُعرف مثله في عصر آخر، وهم لا يذعنون في أنفسهم لإرادة ملك أو أمير، ولا لرأي عالم تحرير، ولا فيلسوف شهير، ولا مشرع خبير، بل صاروا إلى فوضى في الأخلاق والآداب والاجتماع، واستباحة الأموال والأعراض، وكذا الدماء، لم يعهد لها في البشر نظير، صارت بها الأمم والدول عرضة لفتنة في الأرض وفساد كبير.

أكثر البشر يؤمنون بوجود الله وعلمه وحكمته، والمثقفون بالتعليم العصري يؤمنون بوحدايته، ولم يبق للشرك به تعالى بقية إلا في جهال المتبعين لتقاليد الأديان المنسوبة إلى الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، وما هي من أديانهم في شيء بل هي هادمة لأساسها الأعظم، وهو التوحيد المطلق، فكان فشو الشرك بعبادة الأولياء والقديسين وما يترتب عليه، واقترب به من الخرافات وفساد الأخلاق، من أكبر الشبهات على صحة هذه الأديان والمنفردات عن اتباعها، وصار أكثر البشر إما مؤمنين بالأنبياء دائنين بالخرافات، وإما كافرين بهم منكبين أن الدين وحي من الله تعالى، وتعيّن إرجاع الفريقين إلى هداية الدين الصحيح وما هو إلا دين الإسلام.

إن الدين الذي ينتمي إليه أكثر شعوب الحضارة في هذا العصر هو النصرانية، وإنما سبب بقاءه فيهم أن دولهم قد جعلته من نظام حياتهم الاجتماعية، ولكنه لم يبق له سلطان روحي إلا في قلوب النساء والعوام الخرافيين، وقد جاءتنا الأنباء قبل طبع هذا الفصل بأن زعماء الشعب الألماني وهو أرقى شعوب الأرض علماً وفناً وحضارة قد ثار على هذا الدين ثورة جديدة يريد بها هدم أساسه من كتب العهد القديم، وتنقيح تعاليم العهد الجديد، وجعل ما يُيقون منه وطنياً ألمانياً خاصاً بالجنس الآري الهندي الفارسي الأصل، والبراءة من كل ما هو سامي منه، وما أنبيأؤهم ورسلمهم ومسيحهم ومعبودهم إلا من الساميين، بل يريدون تقديس شهداء الحرب وعظماء أسلافهم الألمانين، وإن هذه إلا وثنية كوثنية اليابانيين، تُذكي سكير العداوة بينهم وبين سائر الأوروبيين.

فلا سبيل إلى إنقاذ البشر في هذا العصر إلا بإثبات الوحي المحمدي الموحد لإنسانيتهم، المزكي لأنفسهم، المكمل لفطرتهم، الذي فيه السعادة الدنيوية والأخروية لهم في جملتهم. وقد بينا في هذا الكتاب أن محمداً رسول الله وخاتم النبيين، هو النبي المرسل إلى كافة الناس رحمة للعالمين، وأنه هو الذي أكمل الله به الدين، وأزال العصبيات الجنسية والوطنية لتوحيد الأخوة الإنسانية، فاتباعه هو الترياق المجرب لهذه السموم الروحية الاجتماعية القاتلة، راجين أن يفتح الله تعالى به أبواب الهدى لكل من يعقله ويتدبره من مستقلي الفكر، وطالبي معرفة الحق، وإصلاح الخلق، المعنيين بقول الله عز وجل ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾﴾ [المائدة].